مجلة الدراسات الأثرية
المجلد:21العدد: 2023/01/ص ص: 103- 114
ISSN: 1111-7699
EISSN 2600-6499

ضريح سيدي منصور الجنّادي، من أهم معالم المجمّع الديني أصالةً بقرية تيمزار بمنطقة تيزي وزو

The Mausoleum of Sidi Mansour El-Gennadi, one of the most authentic landmarks of the religious complex in Timizar village (Tizi Ouzou region)

زوليخة تكروشين[1] *

[1]المركز الوطني للبحث في علم الآثار تيبازة، zoulikha42@hotmail.com

تاريخ الإستلام : 2023/01/31 تاريخ القبول : 2023/03/23 تاريخ النشر : 2023/12/30

الملخص:

تنوعت عمارة الأضرحة الإسلامية بالجزائر وجاءت على طرزٍ مختلفة، إذ خُصصت لدفن الشخصيات البارزة من أهل العلم والدين والسياسة. انتشرت هذه المباني بمنطقة تيزي وز ببلاد القبائل، من بينها ضريح سيدي منصور الجنادي بقرية تيمزار، الذي يُعد من بين أشهر الأضرحة بالمنطقة. فهو يمثل أنموذجا مميّزا من النماذج التي تقع ضمن مجمّعات دينية، ومجالا خصبا للدراسات الأثرية، إذ يتوفر على مجموعة من العناصر البنائية والفنية، أكسبته أهمية أثرية وقيمة روحية ودينية وتاريخية بصفة عامة. من خلال هذه الدراسة، سوف نقوم بتسليط الضوء على هذا التراث المعماري الجنائزي، واستخراج وتحليل أهم ما يميّز طرازه من تخطيطٍ وعناصر معماريةٍ وفنيةٍ. فهل جاء طرازه وفقا للتقليد العام للأضرحة الإسلامية، أم وُجدت هنالك خصائص أخرى تميّزه عنها؟

الكلمات المفتاحية: ضريح؛ سيدي منصور الجنادي؛ تيزي وزو؛ قرية تيمزار؛ طراز معماري.

Abstract:

The architecture The architecture of Islamic mausoleums in Algeria is various and was presented in different architectural styles, as they were dedicated to the burial of eminent personalities of science, religion and politics. These buildings were widespread in the region of Tizi Ouzou in Kabylia, including the mausoleum of Sidi Mansour al Djennadi in the village of Timizar, which is among the most famous shrines in the region. It represents a distinctive model among those located in religious complexes and is, therefore, a fertile field for archaeological studies, as it has a set of structural and artistic elements that have given it archaeological importance and spiritual, religious and historical value in general. Through this study, we will try to shed some light on this architectural and Funerary heritage, extract and analyze the most important characteristics of its style in terms of plan, architectural and artistic elements. Was its style in line with the general tradition of Islamic mausoleums, or are there other characteristics that distinguish it from them?

Keywords: mausoleum; Sidi Mansour al Djennadi; Tizi Ouzou; Timizar village; architectural style.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة

إن موضوع الأضرحة الإسلامية هو موضوع هام في الدراسات الأثرية المعمارية والدينية، فهي منشآت خُصصت لشخصيات بارزة من علماء وصُلحاء وحُكّام، بُنيت وفق طُرُز معمارية مختلفة، لكنها اشتركت في تصميمها العام ألا وهو القاعة المكعبة أو الدائرية التي تغطيها قبة، أو ذات سقف مسطح أو جملوني وتكون مختلفة المساحات. كما جاءت هذه المباني منفردة تُلحق بها أحيانا مقابر فقط، وتكون بسيطة في بنائها على الأغلب، تتكون من قاعة واحدة تضمّ القبر وحده أو مجموعة من القبور. أو تُبنى قريبا من زاوية أو مدرسة أو ملاصقة لها أو ملحقة بجامع، أو تكون هي النواة الأساسية لتشييد المجمّع الديني[1] الذي يُعرف بالزاوية. فهو يحتوي على مسجد ومقبرة ومدرسة لتعليم العلوم المختلفة ومكتبة، ومرقد للطلبة المقيمين بها، بالإضافة إلى مخزن ومطبخ وبئر وسبيل وغيرها من المرافق التي يتطلبها السير الحسن للزوايا عموما.

إنّ هذه المجمعات الدينية تضمّ حتما رفات مؤسسيها، بنيت على قبورهم تلك المقامات والقباب تكريما لهم من طرف أتباعهم، ولهذا نجد الاهتمام بها وتجديدها متواصل بهدف كسب الأجر وترحّم المصلين والزوار على صاحب الضريح وجميع المقبورين.[2] وترجع فخامة بناء الضريح ومتانته إلى المستوى المادي لأهل المنطقة أو العائلة التي تكفلت ببنائه، كما ترجع إلى مكانة وشهرة الشخصية الدينية والعلمية والسياسية، التي تمّ تكريمها وإقامة الضريح من أجلها.[3]

ولقد أصبحت مختلف مناطق الجزائر تعجّ بالأضرحة المتنوعة من منفردة ومركّبة، نضرب مثالا عن ذلك منطقة تيزي وزو عاصمة القبائل الكبرى التي تبعد بـ 103 كلم عن مدينة الجزائر والتي تعتبر من أكبر مناطق الوسط التي استقر فيها السكان الأمازيغ. وتعني تسمية تيزي وزو: "مدينة القندول" أو "ممرّ القندول" وهو شجيرة شوكية ذات أزهار صفراء، تواجدت في ممرّ يلتف حول مضيق وادي سيباو، وسُمّي به أيضا مكان يقع في الجنوب الشرقي للمدينة. وذلك الممرّ عُرف منذ الفترة القديمة لكن المصادر القديمة لم تذكر هذه التسمية، إن أن الجنود الرومان عند احتلالهم للمنطقة تقدموا من روسوكورو (دلس) نحو صالداي (بجاية)، مرورا على بلدة بيدة (جمعة الصهاريج) وتوبوسوبتو (تيكلت)، وخلّفوا بقاياهم على الطرق الرومانية في موقع حسناوة.[4]

1. عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية عربي . فرنسي . إنجليزي، ط1، جروس برس، بيروت، 1408هـ/1988م، ص106.
2. عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مطبعة مدبولي، 2000م، ص 175 . 176.
3- Cauvet (C), Cauvet Commandant, « Les Marabout petits monuments funéraires et votifs du Nord de l'Afrique », Revue Africaine, A.Jourdan, Librairie-Editeur, Alger, Volume 64, 1923, p 278.
4- Haddadou M.A, Dictionnaire Toponymique et Historique de L'Algérie, Edition Achab, 2012, P 537-538.

وعلى حذوهم، لم يذكر الجغرافيون المسلمون اسم تيزي وزو، رغم وصفهم لبعض المدن من بلاد القبائل، منها بجاية وتيكلت بوادي الصومام، دلس (تدلس) بوادي سيباو. كما أن الوثائق التي تذكر التسمية بالكاد تكاد تعود إلى ما بعد بداية القرن 17م. فقد شيّد العثمانيون عندما توغلوا في وادي سيباو سنة 1126هـ/1715م برج في تزغرت على الضفّة اليمنى لوادي سيباو، والذي تمّ تدميره من طرف القبائل، ثم بنوا برجا آخرا في موقع المدينة الحالية سُمي برج تيزي وزو من طرف علي خوجة الذي استقر بوادي سيباو سنة 1131هـ/ 1720م وحصن بوغني وبرج سيباو قرب تادميت. ثم تمّ توسيع برج تيزي وزو من طرف خليفة علي خوجة، الباي محمد بن علي المعروف بالذبّاح. وبذلك تزايد عدد الجنود الأتراك وأسسوا حامية، ثم تمركز السكان المدنيون بجوار البرج وكوّنوا نواة مدينة تضم عائلات تركية وكوروغلية (الناتجة عن زواج الأتراك بالنساء الجزائريات) بشكل ملحوظ، بالإضافة إلى القبائل البربر النازحين من الجبال المحيطة، والعرب الأصليين من المدن المجاورة مثل دلس ويسر.[5]

بعد الاستعمار الفرنسي الذي أرضخ القبائل للاستسلام كرها وعنوة، أخذوا برج تيزي وزو وقاموا بتوسيعه بإقامة ثكنات عسكرية ومستودعات للقوات المستعمرة، واستقر بها بعض المدنيين الأوروبيين لممارسة التجارة. ثم تزايد عدد السكان الأوربيين وقررت السلطات العسكرية إقامتهم في المنطقة، وشيّدوا المساكن عبر الممر على طول جانب الطريق. وبعدها تمّ إنشاء مدينة تيزي وز رسميا في 27 أكتوبر 1858م وقد احتكت هذه المدينة لفترة طويلة بالمدينة الإسلامية التي أنشأها الأتراك قبل أن تندمج الاثنتان في قرية واحدة.[6]

ومن خلال ما سبق، فإن منطقة تيزي وزو لعبت دورا هاما في الفترة الإسلامية وخاصة العثمانية، إذ عرفت بناء العديد من الزوايا التي لا تزال تنشر العلوم الإسلامية والتي كان لها دور سياسي وقيادي فعّال، خاصة تلك التي تقع في القرى والأرياف كقرية إيلولة التي تضم زاويتي سيدي إدريس وسيدي عبد الرحمان واللتان أصبحتا معهدين علميين. وزاوية سيدي بهلول الشرفاء وزاوية سيدي بالوة وزاوية سيدي علي موسى. كذلك قرية تميزار التي تشتهر بزاوية سيدي منصور الجنادي، فهي لا تزال قائمة إلى يومنا تزاول نشاطها، تستقبل الطلبة من كل أرجاء البلاد. وقد نالت شهرة واسعة بما كان يُدرّس فيها من العلوم الدينية المختلفة.[7] كما عرفت نفوذا اجتماعيا وعلميا وسياسيا، إذْ غدت رباطا لقيادة الطرقية، كانت معاصرة لإمارة جبل كوكو ومعارضة لأميرها عمر ابن القاضي وللإسبان.[8]

5- Haddadou M.A, Op.cit, P 538- 539.
6- Ibid, P 539- 540.
7. صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، لبنان، بيروت، 2002م، ص 458. 459.
8. أحمد ساحي، أعلام من زواوة أيقاون1، مطبعة الثورة الإفريقية، الجزائر، د.ت، ص 48، 55، 54.

وفي هذا المقال، سوف نقوم بتسليط الضوء على ضريح سيدي منصور الجنادي وإبداعية فن عمارته، وذلك باستنطاق خصائصه البنائية والفنية التي من شأنها تضفي عليه قيمة وأهمية لا يُستهان بهما في الدراسات الأثرية، وكذا تساهم في إثراء البحوث العملية في هذا المجال. فما هو طرازه المعماري وماهي الخصائص التي تميّز بها؟

2. ضريح سيدي منصور الجنادي:

1.2 موقع الضريح وتاريخ تأسيسه:

يقع هذا الضريح ضمن زاوية سيدي منصور بقرية تيمزار دائرة أعزازقة ولاية تيزي وزو. ولا يوجد تاريخ محدد لبناء هذا الضريح، وإنما حسب المكلفين بشؤون الزاوية، فإنه يعود إلى الفترة العثمانية. وقد رُمم مرتين، الأولى سنة 1227هـ/1749م، والثانية في سنة 1322هـ/1905م.[9] وهو مسجل في قائمة الجرد الإضافي، محمي بقرار من الوالي رقم 584 بتاريخ 2013/08/19.[10] ويبدو في حالة جيدة جدا من الحفظ، ولا يزال محافظا على عناصره المعمارية والفنية الأصلية. وهذا دليل على وعي القائمين عليه بأهميته التاريخية والأثرية.

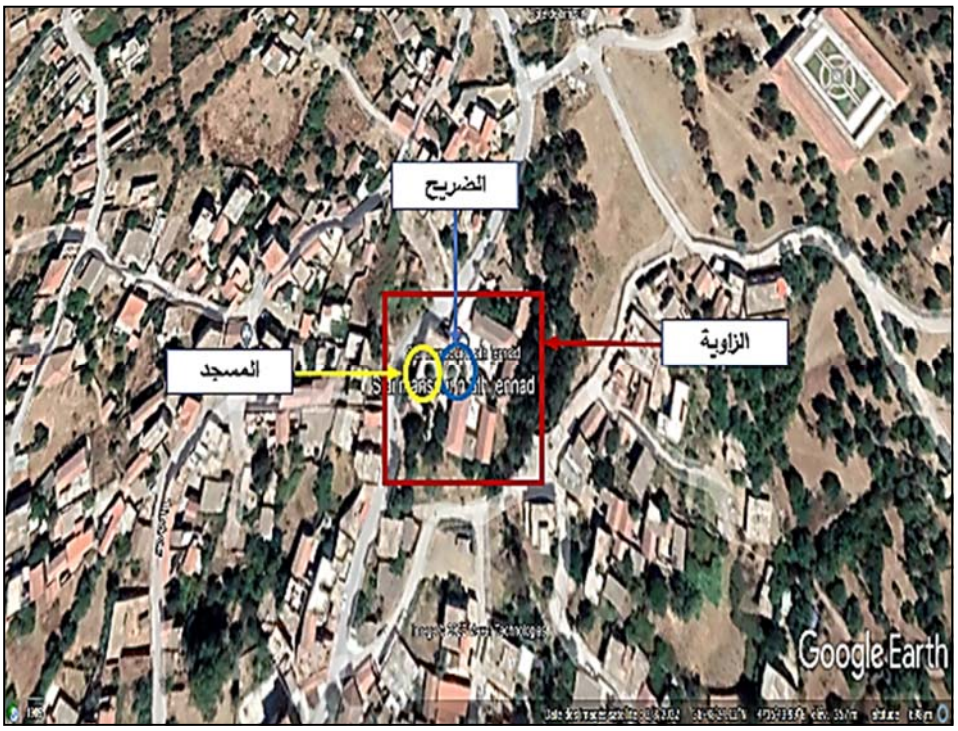

خريطةرقم 01: موقع ضريح سيدي منصور الجنادي. عن Google Earth بتصرف

9. السيد ياسين 50 سنة، مهندس معماري، من أحفاد الشيخ سيدي منصور الجنادي، والمكلف بشؤون إدارة الزاوية.

10. وزارة الثقافة، مديرية حفظ التراث وترميمه، قائمة الممتلكات الثقافية المحمية، إشراف مديرية جرد الممتلكات الثقافية، 2018م، ص47.

2.2 لمحة عن سيدي منصور الجنادي:

هو العالم الزاهد والسياسي المرابط المحنّك سيدي منصور الجنادي المنيعي، من أشهر علماء وصلحاء زواوة في القرن 11هـ/17م.[11] جاء من زاوية الساقية الحمراء بالصحراء الغربية، ليحطّ رحاله في ربوع زواوة. عاش زاهدا عابدا في قرية تدعى تازيرت في يلولة أمالو بين مدينة آقبو وزاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي، ومنها انتقل إلى ناحية إعكورن وحلّ هناك بقرية تدعى ججيقة نواحي سيباو الأعلى، وأقام بها نحو السنتين ولكنه لم يجد لدى أهلها ما يليق بمثله من التقدير والاحترام بل ضويق وأوذي، فغادرها بعد أن دعا على أهلها دعوة لا يزالون يجرّون ندامتها إلى يومنا. ثم نزل سيدي منصور بقرية تيمزار، إحدى قرى عرش بني جناد القريبة من مدينة أعزازقة واستقر به المقام بها. وفي هذه المرة لقي الترحيب وحسن الاستقبال، فاختار خلوة لإقامته في غابة بأسفل القرية تسمى غابة الحمام، وفيها كان مبيته ومقيله. ثم بنى له أهل القرية مسجدا في وسطها يصلي فيه، يُحفّظ صغارها القرآن ويعلّم كبارها أمور دينهم، ومع مرور الوقت تحوّل المسجد إلى الزاوية التي تأسست على يديه، يأتي إليها طلبة القرآن الكريم حتى من القرى المجاورة.[12]

ولما توفي سنة 1053هـ/1644م دُفن في ضريحه الذي كان خلوته أول ما استقر في المنطقة بجوار مسجده.[13] عاش الشيخ سيدي منصور الجنادي في القرن 9هـ/ 15م في ظل حكم عمر بن القاضي الذي حكم جبال زواوة في عهد الحفصيين. أما زاويته فقد أخذت في الاتساع ونالت في أوساط المواطنين سمعة طيبة وذكرا حسنا، بما كان يُدرَّس فيها من علوم القرآن والفقه والأصول والنحو، فقصدها لذلك القاصي والداني من جميع النواحي حتى بلغ عدد طلابها 170 طالبا تتكفل الزاوية بإيوائهم ويتولون تسييرها تحت إشراف الوكيل.[14]

لم يكن سيدي منصور مرابطا ورجل دين فقط، بل كان رجل سياسة وقائدا لأتباعه وأحلافه من الإخوان الطرقيين. فلقد كان استقراره متزامنا مع خضوع بني جناد كأحلافٍ لسلطان مملكة كوكو المتجبّر عمر بن القاضي، وكان يرفض الخضوع له ويحرّض أهل القرية عليه، وكان قد دعا عليه فمات السلطان مقتولا سنة 1026هـ/1618م. ومن كراماته بعد وفاته أنه وقع قتال بين بني جناد والأتراك لمّا طلبوا منهم فتوى شرعية في أحقيّة السلطان بقطع الأشجار في المنطقة لصناعة السفن الحربية، فامتنع عرش بني جناد عن قطعها، إلا أن الأتراك قطعوا الأشجار وأفسدوا ثمار القرية، وحاولوا إحراق زاوية سيدي منصور، لكنهم شاهدوا ثلاثة مدافع تخرج من قبة الوليّ الصالح تندفع في وجوه جيشهم، وفي الصباح أرسل الله تعالى الطاعون والوباء في وسط الجيش الانكشاري، فمات منهم الكثير ورجع الباقي إلى مدينة الجزائر.[15]

11. أحمد ساحي، المرجع السابق، ص 42.
12. صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 458. 459.
13. أحمد ساحي، المرجع السابق، ص 48، 66.55.
14. صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 458. 459.
15. أحمد ساحي، المرجع السابق، ص 48، 66.55.

3.2 الوصف المعماري للضريح:

يتخذ الضريح شكلا مربعا، تعلوه قبة مثمنة تحيط بأركانها أربع شرافات على شكل مثلثات منكسرة حادة. (مخطط رقم 01) يُزيّن أعلى الجدران إفريز من العقود المقلوبة والبارزة على شكل شريط من الشراشف. (صورة رقم 01) يعلو المدخل عقد نصف دائري له باب حديدي تعلوه بلاطة خزفية. وعلى يمينه نافذتان متجاورتان معقودتان بعقد نصف دائري، لهما دفتان خشبيتان تزينهما زخارف هندسية عبارة عن معيّن وهلال أفقي بداخله نجمة خماسية وخط منحني مغلق. تتوزع بالواجهة الرئيسية أربعة عقود نصف دائرية صماء، يفصل بين كل عقدين عمود أسطواني يضم في وسطه مربع بارز مما يعطي شكلا جميلا متناسقا ومميزا، وهذا الشكل الزخرفي نجده يتكرر أعلى الزوايا الأربعة للقاعة. (صورة رقم 02)

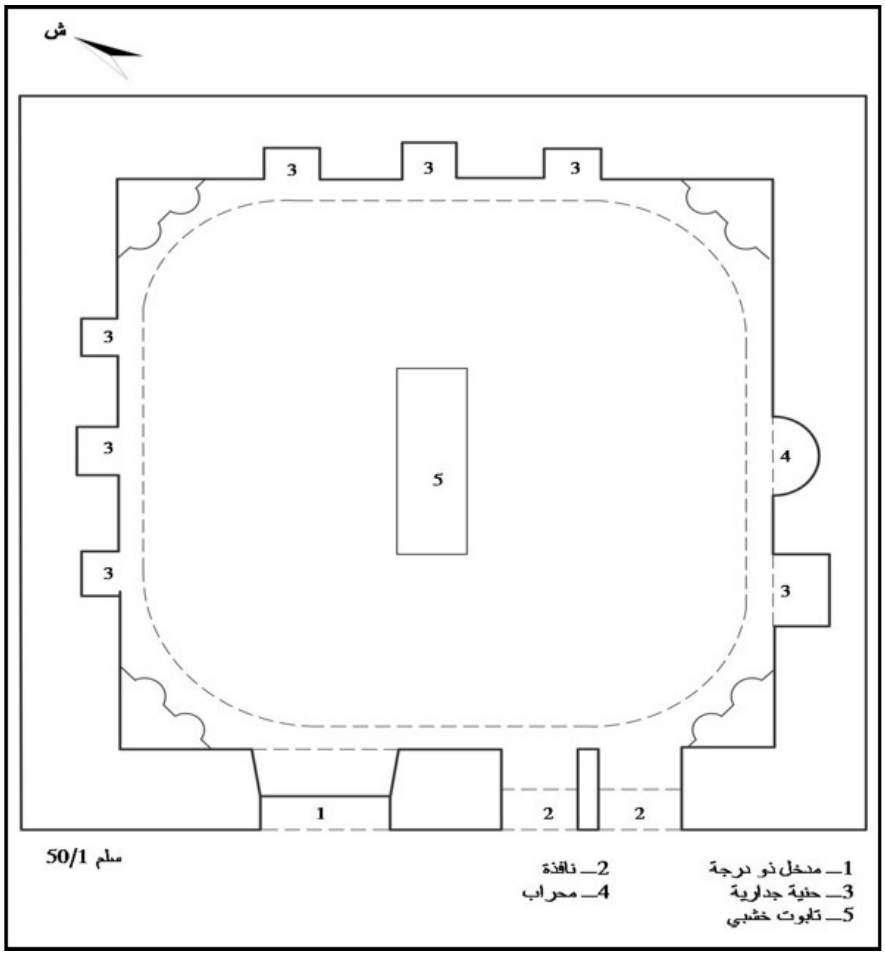

مخططرقم 01: مخطط ضريح سيدي منصور الجنادي. عن الباحثة

صورةرقم 01: القبة المثمنة. عن الباحثة

صورةرقم 02: مظهر خارجي للضويح. عن الباحثة

يحتوي الضريح على محراب في جداره الجنوبي الشرقي، فتحته عبارة عن عقد نصف دائري، تعلو حنيته فتحة مستطيلة وضيقة. (صورة رقم 03) وعلى يمينه حنية جدارية مستطيلة. كما فُتحت في جدران القاعة أيضا حنيات جدارية ذات عقود نصف دائرية، مزينة بأشرطة من البلاطات الخزفية تحمل عناصر زخرفية نباتية قوامها فروع وأوراق ملتوية وأزهار متنوعة. (صورة رقم 04)

صورةرقم 03: المحراب. عن الباحثة

صورة رقم 04: الحنيات الجدارية والدعامات. عن الباحثة

ترتفع فوق القاعة قبة نصف كروية مسقطها مربع ذو زوايا منحنية، وهي ترتكز على مثلثات كروية تقوم بدورها على أربعة عقود نصف دائرية كبيرة صماء تأخذ مساحة كل واجهات الجدران الأربعة للقاعة. يستند كل عقد من هذه العقود الأربعة على زوج من الدعامات الأسطوانية، مدمجة في زوايا الضريح الركنية لتشكل مثلثا متساوي الساقين، يمثل مسقطا مثلثا يرتفع من الأرضية حتى مناطق الانتقال للقبة، وهذا بغرض تهيئة مسقط القاعة المربع للانتقال إلى مسقط القبة شبه المربع. ورغم أن تلك الدعامات بسيطة استعملت لغرض التدعيم إلا أن طريقة توضّعها لم تمنعها من إعطائها شكلا جميلا متناسقا مع العناصر المعمارية الأخرى في القاعة. (صورة رقم 05) يرتفع فوق قبر سيدي منصور تابوت

خشبي بسيط في شكله، مغطى بأقمشة حريرية مختلفة الألوان، تزينه حشوات مستطيلة تحمل زخارف هندسية بسيطة عبارة عن معينات ودوائر متداخلة فيما بينها لتشكّل عناصر فنية معروفة في الفن المحلي لبلاد القبائل.

صورةرقم 05: القبة ومناطق الانتقال. عن الباحثة

4- المميزات المعمارية والفنية للضريح:

يتميز ضريح سيدي منصور الجنادي بمنطقة تيزي وزو بمجموعة من الخصائص المعمارية التي من شانها تضيف قيمة أثرية لهذا المعلم. من أهم تلك الخصائص أنه ينتمي إلى الأضرحة الملحقة بالمجمّعات الدينية، وهذا النوع من المجمّعات يضم العديد من الأقسام إضافة إلى قاعة الضريح، فهو يتكون من مسجد جامع وزاوية لتعليم الطلبة العلوم في مختلف المجالات، وكذا ساحة ومرقد للطلبة ومطبخ ومخزن ومقبرة. وقد ظهر هذا النوع من المجمعات الدينية في أيام السلاجقة والأتابكة والأيوبيين، حيث كان يخصص للضريح ركن من أركان المبنى، غالبا ما يكون قريبا من المدخل الرئيسي، مثل مدرسة الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة (648هـ/1249م) ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين (703هـ/1304م).[16] كما نجد أضرحة أخرى تُبنى قريبا من مدرسة أو ملاصقة لها أو ملحقة بجامع، أو تكون هي النواة الأساسية للمسجد أو حتى في تأسيس المدن والقرى مثلما نجده في ضريح سيدي منصور.[17] وهذا التقليد يهدف إلى المداومة على الاهتمام بالضريح وترحّم المصلين والزوار على صاحب الضريح.[18] وحتى على الموتى بالمقبرة الملحقة بالمجمّع. وكما يتسنى للزوار زيارة الضريح، فإنهم يغتنمون الفرصة أيضا للصلاة في الجامع وزيارة المقبرة أو حضور دروس تعليمية في المدرسة أو الزاوية.

16. فريد محمود شافعي، العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ط1، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، 1982م، ص 179 . 180.

17. عبد الرحيم غالب، المرجع السابق، ص106.

18. عاصم محمد رزق، المرجع السابق، ص 175 . 176.

لقد حافظ هذا الضريح عموما على الطراز الخاص بالأضرحة الإسلامية، فتخطيطه يُعد النمط السائد في بناء الأضرحة مشرقا ومغربا وفي مختلف الفترات التاريخية، فهو يتخذ الشكل المكعب على المسقط المربع، استعمل في أسلوب تغطيته قبة نصف كروية على مسقط شبه مربع ذي زوايا منحنية، لتسهيل توضّعها عليه دون الحاجة إلى وجود مساحة إضافية كما في المسقط المستطيل، وهذا المسقط شبه الدائري نمط نادر نوعا ما في أضرحة الجزائر. وترتكز هذه القبة على مناطق انتقال عبارة على مثلثات كروية بغرض تهيئة مسقط القاعة المربع للانتقال إلى مسقط القبة شبه المربع ومنه إلى الشكل نصف الكروي لخوذة القبة. وتمتد تلك المثلثات الكروية بين دعامتين مزدوجتين في الأركان الأربعة للقاعة نحو الأرضية. وقد انتشر استخدام تلك المثلثات الكروية تبعا للتوسع في استعمال القباب وأنصافها، حيث يرجع الفضل في ابتكارها وتطويرها إلى العرب الشاميين منذ القرن 4م، إذ استعملوها للانتقال من مساحات مربعة إلى مناطق مستديرة ترتكز عليها حافات سفلية للقباب، ثم انتشرت في مستعمرات الدولة البيزنطية وغيرها حتى أصبح استخدامها من أهم مميزات عمارتها. وكانت توضع تقريبا قبة رئيسية فوق الجزء الأوسط من المسقط ذي شكل مضلع هندسي منتظم. وكانت تحاط تلك القبة بقباب ثانوية أو بأنصاف قباب، توضع فوق وحدات أخرى من المسقط الذي يحيط بالجزء الأوسط. وأحيانا يختلف القطر الكروي للمثلثات عنه للقبة، وذلك حتى يمكن عمل القبة من نصف كرة تماما أو أكثر قليلا منه.[19]

ونشير إلى أن وظيفة القباب في الأضرحة تكمن في التغطية وكذا في زيادة الفراغ الداخلي للمبنى، مما يؤدي إلى وفرة الإضاءة والتهوية الجيّدة، وزيادة المساحة الداخلية لحركة الهواء الدافئ الملامس للسقف، فتقل بذلك درجة الحرارة داخل المبنى أثناء النهار.[20] كما أن القباب لا تتعرض لأشعة الشمس كاملة في وقت واحد، لأن شكلها المقعّر يسمح للجزء المظلل بمدّ حركة الهواء المنعشة على الأجزاء الداخلية، وبالتالي التخلص من الهواء الحار والجاف، فهي إذن تقوم بطرد القوة الحرارية، أو التقليل منها على الفراغات الداخلية للمبنى.[21] أما من الناحية الرمزية الدينية، فإنها تمثل صورة مصغّرة لاتساع الأفق واستدارة السماء[22] لأن السماء تظهر للإنسان أنها تسبح في الأفق بغير ركائز مصداقا لقول الله تبارك وتعالى: "**اللهُ الذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**"[23] ولهذا يرجع الفضل في تغطية الأضرحة بالقباب في بلاد المغرب عموما، إلى أن القبة تعطي تأثيرا روحيا قويا على شكل الضريح حتى أنها أصبحت تميّزه.

احتوى ضريح سيدي منصور على محراب نصف دائري المسقط، وهو عنصر معماري وروحي في آن واحد. فالمحراب هو أرفع موضع في المسجد، وقد نجد ارتباطا وثيقا بين القبلة ووضعية الميت في القبر حسب تقاليد الدفن في

19. فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد 1، عصر الولاة (21-358هـ/639-969م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م، ص139-142، 169.

20. محمد السيد محمد أبو رحاب، العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين دراسة أثرية معارية، ط1، دار القاهرة، 2008م، ص505.

21. محمد الطيب عقاب، قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009م، ص146.

22. يحي وزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، الكتاب 2، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م، ص 79.

23. القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية 2.

الشريعة الإسلامية. حيث يوضع الميت في قبره مستقبلا القبلة ويُسن أن يكون على جنبه الأيمن. إن وجود المحراب في الضريح أو المقام، يضفي نوعا من القدسية داخله لأنه مكان القبلة وموضع التوجّه للدعاء لاستجابة الرغبات والأمنيات، خصوصا أن الضريح قد اتُخذ في الغالب كمصلى أو مسجد كانت تؤدى فيه الصلاة قبل أن يُدفن فيه الميت. وقد يكون القبر بعد الدفن في جهة القبلة فيُكره بناؤه داخل الضريح.[24] لكن يبقى ذلك المحراب قائما به رغم وجود المسجد أو المصلى بجانبه، ليوظف كرمزية للدعاء من طرف الزوار والمريدين. وبالنسبة للمدخل والنوافذ والفتحات، فهي تؤدي دورا هاما في توفير نسبة كبيرة من الضوء والتهوية داخل الأضرحة، أما الحنيات الجدارية فهي متعددة منها المعقودة بعقد نصف دائري ومنها المستطيلة، ووظيفتها هي وضع أغراض خاصة بالضريح كالشموع أو الكتب.

زينت جدران الضريح بأنواع مختلفة من البلاطات الخزفية في الجزء السفلي للجدران وبين الدعامات، وقد تنوعت مواضيعها الفنية، إذ نجد الأزهار الأفقية والجانبية والأوراق والفروع الملتوية وأنصاف المراوح النخلية والفروع الملتوية وحتى الثمار والخطوط المنحنية والدائرية. كما استعملت بها عدة ألوان منها الأصفر والأخضر والأزرق والبني والأسود. ولعل إقبال الفنان المسلم على تغطية المساحات وتعميمها بالزخارف المتكررة راجع لكراهيته للفراغ الذي يعتقد أنه من الشيطان، مما جعل قوام هذه الزخارف سلسلة متصلة من الأشكال المتكررة.[25] لتغطي كل مساحة التحفة أو جزءً منها، فيبدع الفنان من خلال تلك العناصر مواضيع زخرفية غاية في الجمال، وتكوينات معقدة ومحوّرة تبتعد في عمومها عن شكلها الطبيعي.[26] (صورة رقم 06)

وقد عرف الفنان المسلم كذلك استعمال العناصر الهندسية واهتم بها حتى أصبحت من المظاهر الزخرفية للفن الإسلامي، حيث نجدها واضحة في زخارف دفات نافذتي الضريح، إذ جاءت هندسية، متمثلة في هلال يحتضن نجمة ومُعيّن وشكلا منحنيا مغلقا يُحتمل أنه يرمز إلى زهرة أفقية بسيطة ذات ثلاث بتلات. (صورة رقم 07) كما نجدها في زخارف التابوت الخشبي، حيث جاءت بسيطة جدا ومتكونة أحيانا من دوائر متكررة تتخللها معينات صغيرة وأحيانا أخرى من ثلاث معينات متدرجة الأحجام ومتداخلة. هذه الزخارف تشير إلى بساطة الفن الزخرفي للمنطقة بما فيها المعينات والدوائر، فهو فن محليّ ينبع عن بساطة الفنان الأمازيغي الذي استوحى هذه الزخارف من الطبيعة التي يعيش فيها. كما نجده يستعمل هذه الزخارف البسيطة على مصنوعاته ذات الاستعمال اليومي من أواني فخارية ومنسوجات وحُليّ معدنية.

24. علاء الدين أحمد العاني، المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق، المؤسسة العامة للآثار والتراث، الجمهورية العراقية، د.ت، ص122. 123.

25. شريفة طيان، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني دراسة أثرية فنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، السنة الجامعية 2007 ـ 2008م، ص 259.

26. زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د ت، ص46.

صورةرقم 06: مجموعة من البلاطات الخزفية. عن الباحثة

صورةرقم 07:زخارف النوافذ. عن الباحثة

3. خاتمة

نستخلص في ختام هذه الورقة البحثية أن الفن المعماري فن يتنوع في كل مكان وزمان، وأن ضريح سيدي منصور الجنادي بمنطقة القبائل يعود بناؤه إلى الفترة العثمانية، وهو دليل على إرثٍ تركه الأجداد وبقي محافظا على قيمته الأثرية رغم قساوة الزمن. اتخذ طرازه التخطيط المربع المغطى بقبة مركزية رغم بساطته وصغر مساحته، فهو لم يخرج عن الشكل المألوف في تخطيط الأضرحة الإسلامية، كما تميّز بوجود محراب يوحي على أنه كان مكانا للصلاة قبل وفاة الولي الصالح أو اتُخذ خلوةً للتعبد أو وُضع لتوجه الزائر إلى القبلة بالدعاء.

أما من الناحية الفنية، فيمكن اعتبار المواضيع الزخرفية التي زخرت بها البلاطات الخزفية، قد طغى على تنفيذها الأسلوب العثماني حيث نجده بارزا في الزخرفة النباتية والتوريق، التي تميزت بكثرة تشعّباتها وتغطيتها لجميع المساحات حتى أصبحت محوّرة عن طبيعتها تمسّكا بالعقيدة الإسلامية. كما نجد الزخارف البسيطة التي تعبّر عن الطابع المحلي التي تشتهر به منطقة تيزي وزو. ومنه يمكن القول أن من خلاله هذه التحفة المعمارية والفنية، استطاع المعمار المسلم أن يمزج بين كل تلك العناصر وِفق القواعد العامة للعمارة الإسلامية والفن الإسلامي.

4. المراجع البيبليوغرافية

. القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية 2.

. أحمد ساحي، أعلام من زواوة أيقاون1، مطبعة الثورة الإفريقية، الجزائر، د.ت.

. السيد ياسين 50 سنة، مهندس معماري، من أحفاد الشيخ سيدي منصور الجنادي، والمكلف بشؤون إدارة الزاوية.

. زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د ت.

. شريفة طيان، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني دراسة أثرية فنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، السنة الجامعية 2007 ـ 2008م.

. صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، لبنان، بيروت، 2002م.

. عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مطبعة مدبولي، 2000م.

. عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية عربي . فرنسي . إنجليزي، ط1، جروس برس، بيروت، 1408هـ/1988م.

. علاء الدين أحمد العاني، المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق، المؤسسة العامة للآثار والتراث، الجمهورية العراقية، د.ت.

. فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد 1، عصر الولاة (21-358هـ/639-969م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م.

. فريد محمود شافعي، العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ط1، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، 1982م.

. محمد السيد محمد أبو رحاب، العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين دراسة أثرية معمارية، ط1، دار القاهرة، 2008م.

. وزارة الثقافة، مديرية حفظ التراث وترميمه، قائمة الممتلكات الثقافية المحمية، إشراف مديرية جرد الممتلكات الثقافية، 2018م.

- Cauvet Commandant, « Les Marabout petits monuments funéraires et votifs du Nord de l'Afrique », Revue Africaine, A.Jourdan, Librairie-Editeur, Alger, Volume 64, 1923, PP 274-329.

- Haddadou M.A, Dictionnaire Toponymique et Historique de L'Algérie, Edition Achab, 2012.